بسكرة

قصة بقلم الجنيدي خليفة

من الذي لا يحب امه ؟ ولكنه كان يشعر انه متفرد بهذه العاطفة ، وكانت كلمة الحب في الواقع لا تتناسب تماما مع مشاعره . وعندما كان يحزم حقائبه استعدادا للرجوع من غربته الثانية بدأ يحس بوطأة الوساوس التي كانت تعتريه بين الحين والاخر . ان رسائلها طيلة السنتين لا تكاد تنقطع عليه ، ولكن من يدري لعل احد اقربائه من الماكرين الطيبين كان يمثل حياتها ويكتب بلسانها .

وترك الحقائب الثلاث التي كان يعدها وقفز الى علبة الكرطون التي تحوي رسائل امه وبقية الاسرة ، وفكر : كل هذه الرسائل المتناسقة مجرد تمثيل ؟ وقال في نفسه : كلا ! ان في الامكان تمثيل الموت مدة طويلة ، ولكن ليس من الممكن الاستمرار في تمثيل الحياة ... ولكن هل قرأت جميع الرسائل من سطرها الاول الى الاخير ؟ والواقع انه عادة كان يقرأ الرسالة التي ترد اليه من امه ابتداء من العبارة « ان كنت بخير فنحن كذلك » ثم يتعمق جيدا في اسم الوالدة الموضوع في نهاية الرسالة ، وبعد كل ذلك يعود الى قراءتها كاملة . وفي هذه المراجعة اكتفى فقط بجملته تلك : « ان كنتم بخير فنحن كذلك ولا ينقصنا سوى الملاقاة بك في ساعة الخير القريب ان شاء الله » .

وكانت هذه الجملة التقليدية تزداد الحاجة اليها كلما قلت الحاجة الى الكلام ، وقال في نفسه : انهم فقط يطمرون الصمت... وماذا يمكن ان يقال ؟ لقد أصبح لها ولبقية الاسرة حياتهم الخاصة ، وبدأت الاشياء التي كنت اشاركهم فيها تضيق قليلا قليلا حتى لم تعد تتجاوز ذلك المنزل ، أو على الاكثر « بسكرة » . لقد بدأوا هكذا : لا يجب ان نقلق « العيد » بالكتابة اليه عن اعتقال اخيه ، لا يجب ان نخبره بمرض والدته قبل ان تتحسن حالتها ، وولد اخيه الجديد لا تخبروه بميلاده حتى لا يحرم نفسه ويرسل الهدية : كانوا في اول الامر مدفوعين بالرغبة في عدم ازعاجي بمثل هذه الامور ، ثم انتهوا الى انه لم يعد يهمني منها شيء .

***

كان اخر ما وضعه في الحقيبة صورة امه التي كانت مثبتة في الحائط بدون اطار ، والقى عليها نظرة اخيرة ، كان يحدق فيما وراء خطوط الهرم العريضة ، وفكر : مهما كانت طاعنة فان بقاءها على قيد الحياة يحمل الدليل على شبابي ، واضاف في نفسه : انني قذر اناني وجبان .

كانت الساعة تشير الى منتصف النهار عندما تحركت الطائرة، وكان يخشى ركوب الطائرة ويعتقد انها معرضة دائما للخطر وان خطرها لا يكاد يعطي فرصة للنجاة او الصراع : موت وسقوط واحيانا غرق. واخذت الطائرة تحلق في الارتفاع الذي اعلنه مذياع القيادة بعد بضع حركات مضطربة : « اثنان وثلاثون الف قدم » يا للخواء ! والقى بنظرة من النافذة ، انه دائما يختار مثل هذا المكان في جميع رحلاته القليلة، وفكر: انني احب على الاقل ان اشاهد موتي . وكانت فكرة ان يجعل من الخواء موضوعا للتأمل او الممارسة فكرة تستولي عليه من قديم ، ولعل الطيران يمثل عنده خطا يفصل بين ملاء تنبض فيه قلوب الراكبين بالحياة وبضجيج المحركات وبين عدم مطلق . ولم تكن الفكرة في نفسه مفصولة هكذا بخط وهمي او مسار حقيقي ، بل كانت عنده شيئا واحدا وان كان من الصعب عليه أن يبرر ذلك او يقتنع به رغم انه شعر به وكأنه حقيقته الاساسية ، واخذ يتذكر ما كان يسميه بفجوات عمره ، وكانت هذه الفجوات تشعره بانه يشيخ دون ان يكون قد مر فعلا بالزمن الذي استغرقته . كان عمره البالغ ثلاثين ربيعا في التقويم الرسمي مجرد اجزاء في البداية والنهاية واجزاء في الوسط ، وردد في نفسه اغنية « عمري راح في الغربة » ، اجل الغربة والغرابة ، ها هنا قضيت عمري.

برزت مضيفة الجو تحمل في يدها طبق الحلوى وفي فمها ابتسامة يتغير شكلها مع كل راكب ، وقال في نفسه : فكرة جيدة ان يتفاءل للرحلة الطيبة بالحلوى ! وعندما قدمت اليه يدها بالطبق سألها عن سبب مخالفة التقليد الذي كان يجري بتقديمها قبل بدء الطيران .

ـ انه لم يكن معها نتف القطن الذي قد يطلبه من يريد سد اذنيه .

ـ وهكذا فانتم في العادة تقدمون ما يحول دون الضجيج وما يلهي عن انفجار الضجيج .

فقالت وهي تتقدم الى المقعد وراءه :

ـ بالعكس اننا نقدم الحلوى في الاصل الى الاطفال لمزيد اطرابهم والقطن لمرضى الاذن ...

وحدق مرة اخرى نحو الارض ، انه يطير الان فوق البحر ، والتفت الى اعلى النافذة ، كانت العبارة المكتوبة بالاحمر ترشد الى مقبض المنفذ المعد للهبوط الاضطراري ، وكان في ظهر المقعد الامامي الجيب الذي يحمل كيسا للقيء وبطاقة التعليمات في حالة الطوارىء ، وفكر : حسن أن كل شيء في مكانه . لقد فعلوا ما بوسعهم ، ومن الانصاف ان يذكر الراكب اثناء طيرانه بانه معرض للخطر . وحتى تلك الابتسامة الجميلة التي توزعها المضيفة لا تخفي معاناة التناسي للخطر المحدق .

ويبدو ان ما يقلقه ليس الموت في ذاته ولكن تصوره للموت ، ومن المؤكد انه كان يفضل أية ميتة بشرط الا يسقط ، وخطر بباله ، عندما كنت مسافرا بطريق البر كنت احث السائق ان يسير باقصى سرعته ، وكانت كثبان الرمل المفاجئة وسيارات النفط الكبيرة تهدد كل لحظة بكارثة ولكن الموت لو حدث فانما كان يحدث بملاء ، انه لن يخالطه العدم.

ولاحظ بغرابة كيف انه لا شيء احب اليه من الطيران اذا كان في الارض ، ان الطيارة في هذه الحالة تسير فوق قنطرة من الصلب وكان ازيزها من الخارج يبدو له واثقا وقحا بقدر ما كان وهو بداخلها يبدو له متخاذلا مسترحما .

ولكن هل فقط اجدها حية حقا ؟ سابذل كل ما في وسعي لاسعادها، واحس بشيء من التعب الممل اراد ان يطرده بتصفح الجريدة التي كان قد وضعها على المقعد المحاذي حتى لا يجاوره احد الراكبين ، ولم يحتمل القراءة ، وفكر : فقط لو جلس الى جانبي احد المناظر الجميلة ، اذن لامتص مشاعري. ولم يكن الجمال عنده اقل اشعارا بالخلاء ولكنه كان يهوى التغيير ، كان يحب الا يقتله نوع واحد من السأم . ومر قبطان الطائرة في طريقه الى دورة المياه فضحك من تصوره للحاجة التي

سيقضيها ولكنه شعر نحوه بامتنان . وعندما عاد سأله عما اذا كان في امكانه ان يتفرج على غرفة القيادة ، وشعر بود كبير نحو الاجهزة وحركة المؤشرات ، كانت تعتريه الرغبة في التربيت عليها ، ولكنه سرعان ما لاحظ ان شيئا من خيبة الامل قد حل به نحو الاجهزة ، وكانت خيبته اشبه بالسر المقدس تزول هالته ، وتساءل في نفسه : هذه الالعوبة اقل من ان تكون الة لمزج الملاء والخلاء ، وتذكر الخلاطة الكهربائية التي اوصاه احد اصدقائه بان يرسلها اليه بمجرد وصوله ، وقرر : لن ارسلها اليه ابدا ... انه هو الاخر من هواة الخلط . وابتسم : ان الخلط هو الكلمة الوحيدة التي كنت ابحث عنها لادعوه بها ، وتذكر كيف ان صديقه كان يقوم بعمليات كبيرة لانواع عديدة من الخلط ، وضحك في نفسه مرة اخرى وراح يتصور خلاطة كبيرة بارعة ، ومر في ذهنه ما كان قد قاله له مرة صديقه من انه يحب دائما ان يغير من طعم احدى العمليات الخنزيرية ((بممارسة)) خنزير اخر ...

وكان يهم بتكريس بقية مشاهدته في غرفة القيادة لعامل اللاسلكي ولكن احد افراد الطاقم قد اخطره ان الطائرة تستعد للهبوط بعد بضعة دقائق وان في امكانه ان يشاهد ما لم يشاهده بعد استئناف الطيران .

وعندما حلقت الطائرة من جديد بعد ان قضت نصف ساعة على الارض كانت وجبة الغداء قد بدأت توزع . قال للمضيفة ، وهي تقدم له الطبق ، بلهجة بعيدة عن المشاغبة : انكم تغرقون الركاب في المأكولات والمشروبات ، وود لو يقول لها انه شخصيا قد يقرر القيام برحلة طويلة لمجرد ان غذاء جويا قد اعجبه . ومرت بذهنه ذكرى ((البنسيون)) الذي استأجره بثمن مضاعف لان صاحبته قد انتقدت الكيفية التي كانت معقودة بها ربطة عنقه واعادت تشكيلها تشكيلا جديدا . وكانت المضيفة قد تجاهلت ملاحظته مكتفية بتحريك ابتسامتها المعلقة ، وقال في نفسه: لا شك ان الناس لا يخسرون مائة الف فرنك في سبيل وجبة لا تكلف اكثر من الف فرنك . واستدعى باشارة ، المضيفة التي لا تزال تخدم المقاعد القريبة : ان راكب الطيارة يبدأ بحشو بطنه استعدادا لان يصبح هو نفسه حشوا لجوف الارض . ودهش لما اجابته بان ذلك انسب تدرج نحو التجانس ، وكان جوابها يتبدى كذلك من خلال بريق عينيها الذي يستمد حيويته من مجرد وراء فارغ ، بريق للا شيء .

كان يهم باستئناف جولته في غرفة القيادة ولكن المضيف المخصص بتوزيع المشروبات قدم له الكوب وسأله ما اذا كان يريد ان يملأه له بالغازوز او البيرة . كلا انه لن يعود الى شربها اطلاقا ، وعندما قرر في الايام الاخيرة مقاطعة عادته في الاحتفاظ ببعض الزهور في بيته كان قد قرر كذلك مقاطعة الخمر . وفكر : ان هذه العادات هي الاخرى من حيل التجانس ، ولم اكن اشرب الخمر لمجرد الشرب ، كنت اشعر وانا اتهيأ لها بمثل ذلك الشعور الذي يعتري بعض النساء وهي تمد يديهما متبرعة لرضيع من اسرة صديقة ، لقد كنت انا الاخر مدفوعا بخلق اخوة مع غيري من الناس والاشياء بواسطة ذلك السائل الغريب كما كان يخلقن تآخي الابناء بواسطة الرضاع .

واسترسل مع نفسه : ربما لم اشرب الخمر قط الا وانا احس ببسمة الناس شاحبة ، بنور الفجر وكأنه نور ((النيون)) الباهت يخالطه التراب . وابتسم وقال في نفسه : تلك المرة كدت انسى مني جزءا رئيسيا وكان قبل ثانية محط احاسيسي ...

ومنذ الان اني احب ان امتد وانا في تمام صحوي . والقى نظرة طويلة من النافذة ، كانت الطائرة لا تزال تحلق فوق البحر ، وكانت قطع السحاب القليلة تبدو ابعد مما لو كان يراها من الارض . وفكر : اثنان وثلاثون الف قدم وسرعة تسعماية كيلومتر ومن تحت بحر يغفر بطنه ! وذهب الى غرفة القيادة يحادث ضابط اللاسلكي :

ـ احد الركاب يستهويه اللاسلكي ...

ـ في استطاعتي ان اشرح لك شيئا عن طبيعة هذا العمل قبل ان نقترب من نهاية الرحلة .

ـ اشكرك . بودي فقط ان اشاهدك وانت تعمل بالجهاز .

ورفع الضابط كتفه مبتسما ، وتشاغل بورقة امامه ، وظل العيد متسمرا لا يركز عينيه نحوه ، انه يفكر في الموضوع : الاتصال عن بعد : اليس ذلك الازيز الذي يأتي مع الصوت هو انفاس العدم ؟ وطرب لهذه الفكرة ! في الامكان مسك اللاشيء والانصات اليه . واضاف : عندما يكون اللاشيء في خدمة الانسان ... ولم يستطع اكمال الفكرة .

وعاد الى مقعده وقد اعتراه اضطراب عندما علم انه لم يبق على الهبوط غير بضع دقائق . وانطلق صوت المذياع يدعو الى شد الاحزمة واطفاء السجائر ، وبدت له من تحت جناح الطائرة مشارف عاصمة الجزائر القرميدية كنماذج مبهمة ، وفكر : اجل ستظل الحياة قبل الهبوط مجرد فكرة معلقة بين الارتفاع والسرعة ، وتذكر معلوماته من ان الهبوط والصعود هما في الغالب مكمن الخطر ، وفكر : لست في حاجة الى هذه المعلومات ما دام الهبوط والصعود هما حالتا العبور بين الخلاء والملاء ، وحاول ان يطمئن نفسه بان نسبة الخطر رغم ذلك لا تتجاوز جزءا يسيرا بالقياس الى حالات السلامة ، ولكنه سرعان ما عاد الى فكرته التي يسميها : ((مبدأ فساد الاحصاء)) : ما يدريني ان ذلك الواحد في المائة لا يتحقق هذه المرة بالذات ؟ واضاف ـ وعنقه لا يزال ملتويا الى النافذة ـ : كل ما هو في امكاني الا ادع العدم يميتني بطريقة الاغتيال ، سأخضعه للمشاهدة على الاقل ، ان الاعزل يقتل نفسه اذا لم يحدق في البندقية المصوبة اليه .

وتردد : لست واثقا من ان هذه هي رغبتي الاساسية . لعل كل ما هنالك هو اني اشعر ببلادة تعوقني عن الاحساس بما حولي ، انني ((ترموس)) ، وتذكر مرة اخرى صديقه الذي طلب منه الخلاطة ، كان هذا يرد عليه كلما لحظ له ((العيد)) غرابة اطواره وشذوذ تصرفاته : بان اكثر الناس يمارس افعاله بدافع من دوافع الحياة اليومية ، اما انا فاني امارسها بدافع اخر ، بدافع اللاشيء ، واذ لاحظ تبرم ((العيد)) بهذه الاجابة اعاد اليه القول بانه يعني فعلا اللاشيء ، واضاف : اذن تعرف تماما ماذا اعني ولكنك تدعوني الى التفسير بدل ان تقوم به

شعر

من منشورات دار الآداب

★★★

		ق.ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وحدي مع الايام	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● اعطنا حبا	لفدوى طوقان	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق معلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● ابيات مؤرقة	لسليمان العيسى	٣٠٠
● في شمسي دوار	فواز عيد	٢٠٠
● الفجرآت يا عراق	هلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	عدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	خالد الشواف	٢٠٠

لنفسك .. انا ، اللاشيء مشكلتي ، اما رغبتي فهي تجاوزه الى حيث الشيء ، اريد ان اصبح اخا دون نسب او رضاع ، وبالاخص دون زهور او خمور . واسترسل مع نفسه : لعل « الخلاطة » هو الاخر ما كان يهدف من عملياته الخنزيرية الى غير الصوت الهامس الذي يحدثه الخلط : ان حاجته هي في الاثر الحيادي لممارسته الفعلية ، شاهد يسمعه هو ولا يصل صوته الى غيره . وتردد : ان هذه الطريقة هي عين الفشل في الاتصال ،انه يقيم قنطرة بين العالم وجسمه ، قنطرة من الخمر والمواد اللزجة . وبت : اني اريد ان اتصل تحت شمس الصحراء بروح الناس والاشياء عن طريق روحي .

وقفزت اليه « بسكرة » وامه في الوقت الذي توقفت فيه الطائرة وتمت رحلته الى العاصمة بسلام .

...

كان عليه ان ينتظر بالمطار حوالي ثلاث ساعات ليستانف ركوب طائرة اخرى تقله الى مدينة « بسكرة » . لقد فكر اول الامر ان يقوم بالرحلة من اولها الى اخرهابطريق البر ، واذ انه اختار الطيارة في المسافة الطويلة فقد آثر ان يتم الرحلة كذلك ، وفكر : ان هذا ليس لمجرد بسمة مضيفة ما زلت اجهلها .

وكان الساعات الثلاث التي انتظرها في المطار هي فرق التوقيت بين البلد الذي كان فيه وبين توقيت الجزائر بحيث كان من المقرر ان يصل « بسكرة » حوالي السادسة ولم يشغل باله هذه المرة بمسالة الطيران واعتقد ان ما فعله منذلكطيلة الساعات الماضية لم يكن سوى نوع من الهروب دون الانشغال بامه وببسكره ، وفكر : لا بأس ، انني سأعيش كل ذلك .

وكان الفصل في عز الصيف ، وخمن : انها الان تشرب الماء ، الان وطيلة النهار ، ولعلها بعد دقائق ستستمع الى هدير الطائرة يغلي في السماء . ترى هل تتوقع قدومي بهذه السرعة ؟ ولكن هل فقط هي حية حقا ؟

واعتراه شعورمباغت بالصحو ، انه الان يحس بانه حقيقي : « اي شيء يمكن الا يكون حقيقيا تحت هذه الشمس ؟ » وبدت له كثبان الرمل تفر مطرودة باللهيب الكابي ، وقال : يجب ان اتشجع لقبول الحقيقة ان لم تكن على قيد الحياة . وظل لحظات يفكر في امه على اساس انها ميتة ، حقا ان الامر اقل صعوبة مما كنت اتصور . واضاف : سأبدأ بقية عمري بداية حسنة ...وحاول ان يتخيل « بسكرة » هي الاخرى ميتة فلم يستطع : كلا لو استرسلت هكذا لكان علي ان ادفن نفسي انا الاخر ، والقى نظرة طويلة الىالارض : ما الفرق في ان يكون المرء في قبر او حيا يرزق انلم يعمل على قتل التراب ؟

وبدت بعض واحات النخيلوراح يتصور عراجينه المدلاة وجريدها المنحني ، وقال في نفسه : ان الانسان عندما يقتل الطبيعة تمد له يد الاخوة .

...

اخذ نفسا طويلا وهو يفتح باب السيارة التي ستقله الى المنزل وركب : انه هواء فحل ! وكانت تركب معه بعوضة ، وفكر بامه : لعلها كانت قد ماتت بعقرب .كلا انها الان تصلي ، او لعلها تتمخط .

وكان الهواء رغم انطلاق السيارة يتعاقب كتلا ساخنة ، وكان السائق يبدو وكأنه يغوص في شيء غير مرئي ، وفي المدينة التي كانت جدرانها باهتة الطلاء بدأ يلاحظ المارة وكأنهم يمشون فوق سقف كبير يخشون ازعاج من تحته .

وفي مفترق الشوارع كانت لا تزال توجد بقايا الاسلاك الشائكة ، وقال للسائق : كيف الحال عندكم ؟

ـ الحمد لله ، هل ادور من يمين الشارع الاتي ؟

ودار دون ان يتلقىالرد.

...

انها تشرب الماء ، واشار الى السائق ان يقف امام الباب التالي .

اذن فهذه « بسكرة » ! واضاف وهو يصرف التاكسي : اني لم اقترب ولكن البعد قد اصبح مضغوطا ، واللاشيء : لقد تقلص مجرد تقلص .

هل تكون هذه « بسكرة » حقا ؟ وشعر بتشويش وانزلاق في فكره ، وطرق الباب ودخل .

كانت تحاول انتنهضمستعينةبكرسي امامها ، كانت قامتها فيحالة ركوع ولكن رأسها كان مرتفعا .

ـ اجلسي يا « اميمه » ، وعانقها وقبلها في فمها ، وعندما كف شعر بانها كانت لم تنته ، وسمع قبلتين عجوزين ذهبتا في الهواء،وبينما كان يدير لها خده لتكمل التسليم وجدها قد انتهت منه . وفردت كان الصوت يخرج رخوا مشروما .

ـ كيف الحال يا « اميمة » ؟

ـ الحمد لله ،نحن بخير ان كنت كذلك ، هل عدت نهائيا يا سي « العيد » ؟

ـ لقد عدت .

ـ هل عدت نهائيا ام مثل المرة السابقة ؟

ـ لقد عدت يا ماه.

وخرج الى فم الباب يلقي نظرة على الشارع الذي امضى فيه طفولته . وسلم عليه باسمه احد المارة ولكنه لم يتعرف عليه ، وظنه يشبه احد معارف الصبا. وعلى الباباالمجاور هتف طفل : تحيا الجزائر ، بينما كانت ساعة البلدية القديمة تدق السابعة مساء . وقال في نفسه : انها ما زالت تدق ، واضاف : ساستيقظ عند دقتها الثالثة . وسيكون الهواء اكثر لطفا .

مدينة بسكرة (الجزائر) **الجنيدي خليفة**